مقاربة نقدية لرواية..

الإعصار والمئذنة

للدكتور عماد الدين خليل

بقلم:
محمد رشدي عبيد

الرواية في ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط طبعتها مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٥ وألّفها الدكتور عماد الدين خليل.. إنها لوحة بانورامية تجمع بين الشهادة على طرف من أطراف مأساة معاصرة للمسلمين وبين الابتكار الروائي المبدع المطعم ببُنى الخيال، بناؤها الدرامي يتسم بقسمات الإسلامية في التعبير المزاوج بين الجمالية الفنية وبين الصدق التصويري، والتوصيف الثري الحزين لواقع حاضرة من حواضر عالمنا الإسلامي كتب عليها أن تتخضب بالدم، وتدفع ثمن أصالتها وإيمانها وجزاء تفريط كثير من أبنائها وأعاديها بسنن الله الكونية والشرعية.. نزيفاً هائلاً من مشاعر القلق والفزع، وضحايا بشرية متناثرة الأشلاء مهدورة الآدمية، تشتكي إلى الله تسلط الغرائز البدائية الدنيا على قاتليها.. إنها رواية تحاكم الإنسان وتدينه حين يغدو هيكلاً أصم قاسياً متجرداً من القيم الراسبة في أعماق الذات البشرية، المتجذرة في أرضية روحها والمزروعة بكلمات الله المنزلة على قلوب أنبيائه في تربتها المادية.. كما أنها تؤشر بشجاعة إلى مايحدثه أي عطب أو تكدر في رؤية الإنسان للحقيقة الخالصة المتمثلة في الدين الحق، من تفكك ودمار في الذات والحياة والآخر والأشياء والقيم.. وإذا كان إعصار الهوى الجامح والفكر المقلد والجانح قد ولىّ وتناثر ما كان يحمله من غبار الإثم والعدوان والفجاجة فإن مئذنة الحق الصراح والدين الخالص قد بقيت جذورها منغرسة في صميم الفطرة ولحمة الواقع الأرضي مكاناً وزماناً، قمتها مستشرفة لنور السماء وأضواء الهدى إلا أن بعض الطيبين قد كتبوا على أطرافها بالدم ملحمة شهادتهم.

الرواية قد كتبت فيما أظن سنة ١٩٥٩م، وليس فيها من تقنيات الرواية الغربية الأكثر حداثة والتي انطبعت بطابع الغموض وفقدان الترابط والتسلسل الحدثي والموضوعي، وحمّلت القارئ جهداً استثنائياً من أجل فك رموزها وملء فراغاتها وتأويل متشابهاتها وتجميع قطعها التركيبية المشتتة وتوحيدها ولحم بناها وتوصيلها. ولقد أدان كثير من النقاد المعاصرين موجة الغموض الأدبي التي راجت لدى بعض أدبائنا المقلدين لتقليعات الغرب المتكاثرة التي ينقض بعضها بعضاً، واعتبروها موجة خطرة تستوجب المكافحة.. ولاشك أن الوضوح التعبيري دليل التميز، والأصالة الثقافية، والتوافق النسبي بين الشعور واللاشعور، والقدرة على تنظيم طرق التفكير والتعبير وفق القواعد اللغوية، والانطلاق من الهم المشترك والهاجس الإنساني الأصيل الذي يجعل القارئ أكثر تجاوباً مع النص الروائي بينما يفقد القارئ التعامل الوجداني والفكري الحارّ مع القصة الغامضة غموضاً ملغزاً.

وإذا كان الشكل الروائي الغربي الذي اعتنق فكرة الغموض تعبيراً عن تغير جذري في موقف الإنسان الغربي من العالم كما زعم «ألان روب غرييه» فإن الكاتب الروائي المسلم المنطلق في إبداعه من منظوره الإيماني العلمي الثابت والمتوازن والشامل والواقعي للوجود والحياة والإنسان والقيم لم يتغير موقفه من العالم ولم يتغير تبعاً لذلك اتجاهه الأدبي فيقينياته الكونية لا تنهدم بفرضيات ونظريات وظنون العصر.. وهذا لايعني بالطبع أن لايستثمر الروائي المسلم التقنيات الحديثة في مجال الشكل بما لايعارض المقدمات الإسلامية عن الحقيقة والفن ولاينافي الذوق الإسلامي المتشكل بثوابت العقيدة والخلق والأنظمة، فلا بأس على الروائي مثلاً أن يستجيب لروح العصر الآلي ونبضه المتسارع وإيقاعه الجاد الذي قد يختزل لغة إبداعه ويرشقها دون هدم لقواعد النحو والتعبير، أو تجاوز على الترابط الموضوعي أو تمزيق لنسيج الحبكة أو قطع لحلقاتها المتساوقة أو إهمال تام لفكرة الزمان بحجة نسبيته.

■■ وبالنسبة للشخصيات:

يميل بعض النقاد المعاصرين إلى اعتبار التصوير الناجح للشخصيات من أهم علامات نجاح العمل الروائي وقد ظهرت مدارس عدة في تحليل الشخصية وأسلوب تصويرها الأمثل.. ويتجلى إبداع الروائي في رسمه للشخصيات في مدى قدرته على تعمق دواخلها وخفاياها ولمس اهتماماتها والنفوذ إلى عوالمها وإمداد القارئ برصيد وافر من كل ذلك لم يكن واقع علاقته الاجتماعية ليمده به.

وقد اتبع الروائي أسلوب وصف الشخصية برسم سماتها الشكلية وإخبار القارئ بمظاهرها الدالة على صفاتها وبنيتها الداخلية، فشخصية «عاصم» تتجلى «رومانسيتها» في اهتمامها الزائد بالمظاهر وهيمانها في عوالم العواطف السائلة والأحلام المرفرفة، إنه يقول: «ماذا لوساد السلام العالم وترك القتلة الناس ينعمون بالمحبة» لكنه لايبذل جهداً يذكر لتحقيق هذا المطلب الجميل! و«عبدالرحمن الشيخ داود» رسمت شخصيته بإشارات وصفية لبنيته الجسدية النحيفة التي توحي بالصرامة والمزاجية والحدة وعدم احتمال الأذى، فهو طويل نحيف ضعيف ضيق العينين مزموم الشفتين، وليست «قدرته المتفننة في طرح النكات» إلا غطاء لمعاناته وتصريفاً للألم الذي يستبطنه.. وقد بدا تأثير المذهب الطبيعي في اتجاه الروائي حين صور شخصية «يونس» تصويراً حسياً دقيقاً وجعل معالم صورة شخصيته منطلقاً حتمياً لنمط سلوكه وصائغاً ضرورياً لمنظوراته العقيدية، فهو ضئيل الجسد، مشوه الخلقة، ضحل الفكر، علاوة على عوزه المهلك.. وكأن لم يكن أمامه تحت ضغط مركب النقص والعجز الفكري والفقر المادي إلا أن «يتخبط في شباك إحساس مرير» يدفعه إلى الانتقام البشع والتعويض عن الحرمان الموروث.

● د. عماد الدين خليل

وهكذا اندحر البطل الرومانسي عاطفياً وغاب نهائياً عن أجواء الرواية فمثل مايسمى «بالحبكة النازلة» أما الحبكة الثانية فهي «حبكة نازلة» أيضاً، وهي تتمحور حول شخصية أخرى تحتل مساحة أضيق في فضاء الرواية، إنها شخصية العالم الديني «هاشم عبدالسلام» الذي استشهد بحكم الغوغاء المهووسة، ولم يتكل صراعه مع الشخصية النقيضية له ومع التيار الذي كان يركبه والذي كان أعتى وأشد بدائية وشراسة أن يكبحه بإيمانه وتعاونه مع فئات المعارضة.

وبما أن الرواية في مجمل عناصرها ووقائعها الأساسية ذات طابع واقعي مأساوي «بالتعبير الشائع» فإنها تبدو متماسكة الأحداث ومتساوقة وصادقة وذات خاتمة أليمة، إذ يخفق جهد البطل المسلم الأكثر بروزاً وفاعلية وأصالة في

تحقيق هدفه بإزاحة موجة الأنكار والتفكك عن مدينته، فهل كان وراء ذلك الإخفاق القدر «الذي يرانا ولانراه ويصرف مصائرنا من حيث ندري حيناً ولاندري في معظم الأحيان»؟، أيا كان الجواب فإن النهاية العملية غير السارة لبطل الرواية إنما تشير بوضوح إلى القوانين والسنن الإلهية الثابتة التي تضبط المعادلة المتوترة بين متقابلات الحياة ونقائضها والتي لا تتأثر لحياة أحد أو موته كشأن السنن الكونية، فإذا كان من سنن الله اختياره واتخاذه شهداء من بين عباده الصالحين، فإن من سننه المطردة أيضاً أن الحق لايتأصل ويهيمن في مقابلة باطل متربص به وأشد منه قوة ومكراً.. وأنه لاينتصر في معركة إذا لم يتجرد من كل ما يكدر نقاءه حتى لايكاد يراه الرائي متلبساً بهوى أو باطل.. وهذا ما يؤكد عليه الدكتور عمادالدين في تنظيراته في فلسفة التاريخ وتفسيره.

فكل نفس إنسانية قد ألهمت فجورها وتقواها، وهي قادرة في حدود مواهبها وسعيها على بلوغ الحد الأدنى المقبول عند الله والبشرية الراشدة من الذكاء والخير.

والكاتب يلجأ أحياناً إلى الحوار لكشف المزيد من سمات شخصياته كما أنه يشخص بعضها أو بعض أبعادها بتصوير أفعالها ومواقفها وسلوكياتها ضمن أحداث الرواية.

■■ الحبكة:

الرواية محبوكة بتفنن وإتقان بالغين، فالبداية مرسومة بشكل شعري منساب، لكن الأحداث لا تلبث أن تتزاحم والأزمات تميل إلى التكاثف والتعقد ويشتد شوق القارئ إلى تعرف النهايات وبلوغ الذرى التي تلوح في أفقها الختامي ولايلتقيها إلا بعد أن يكون قد بلغ حداً أقصى من التوتر والانفعال والترقب.

وتشتمل الرواية على حبكتين رئيسيتين إحداهما تتمحور حول البطل الروائي «عاصم» المشغول بذاته المنهمك في إشباع نرجسيته، الدائر في إطار حبه وزواجه الباحث عن نعمة الأمن والراحة والمال، ويلاحظ نمو الأحداث المتعلقة بها نمواً طبيعياً عضوياً يلائم شخصيته المتراخية الهشة «اللا مبالية» في مواجهة المواقف الصعبة والمبالغة في عقلنة الأحداث وتفسيرها من زاوية ذاتية محضة، لقد شغلته الفتاة الحلم عن كل الهموم والاهتمامات الجادة والأحداث الهائلة التي كانت تعصف بكل ساكن ومستقر من الأشخاص والأشياء والمشاعر والأفكار في تلك المدينة الممتحنة، ولقد كاد يفوز ببغيته بعد طول صراع مع الحياة واحتكاك جانبي مع شخوص الرواية ومحاولات تكيف وملاينة ومناورة لما يعترضه من مؤثرات وتحديات، لكنه يخفق في النهاية إذ لاتستجيب له فتاته الباسلة التي آثرت الاعتصام بالقيم الباقية على التعلق بتيار حفظ الحياة والإبحار بعيداً عن عالم المبادئ واختارت الموت الهادف على الحياة الهادئة الرتيبة.

■■ فضاء الرواية:

بما أن الرواية تسجيلية مطعمة بالحقائق التاريخية فإن لتحديد زمان أحداثها ومكانها أهمية قصوى لإعطاء القارئ نكهة الحقيقة وحياة الواقع وحرارته، وقد حدد الكاتب توقيت بعض الأحداث التفصيلية إلا أنه لم يشر إلى سنة وقوع الرواية ككل، بينما وظف المكان بشكل جيد يخدم بنية العمل الروائي، وأشار بدقة إلى المواقع المهمة للأحداث ووصفها وصفاً فنياً «جامع الشيخ عجيل، دير ماركوركيس، بيت عبدالرحمن شيخ داود، معسكر الغزلاني.. إلخ بحيث يشعر القارئ الخبير بخارطة الموصل الداخلية أنه يرافق الأحداث ويشهدها ويتفاعل مع إيحاءاتها.

■■ وجهة نظر الراوي:

لقد لجأ الكاتب إلى أسلوب السرد المتسم بالتجرد الموضوعي عن اتجاهات الشخصيات وخلفيات الأحداث ومنطلقاتها ومساراتها، فكان سوقه للوقائع ووصفه للشخوص وتصويره لمشاهد الرواية متسماً بسمة المؤرخ الأمين المستوعب لتنوع البشر وتعدد العوامل والمؤثرات الصانعة للتاريخ، لذا كانت تحليلاته وتفسيراته وتسويغاته الروائية مقاربة للحقيقة وموافقة للفهم المتجرد المشترك، وهذا لايعفيه من استطراد هنا وإدخال وجهة نظر خاصة هناك، مما يمكن أن يكون موضع مناقشة وقبول أو رد كقوله: في مونولوج داخلي لهاشم عبدالسلام عن أحداث الموصل بأنها كانت تطمح إلى «تغيير شامل يعيد الطرق كله إلى جادة الصواب» أو أن «العراق كله يقف الآن على بعد خطوات من الخلاص».

ومن الأدلة على عدم انحياز الكاتب لشخصية ما في الرواية وبشكل متعسف، ملاحظة الناقد أن بطل روايته «عاصم» الذي تحتل حركته مساحة واسعة من الرواية ليس بطلاً ذا تصور إسلامي يوافق تصور الكاتب بل إنه شخص متردد عاجز عن اتخاذ قرار حاسم في الحدث الهائل الذي سحق مدينته وشغل ناسها وملأ دنياها.

■■ المغزى:

إذا كان الاتجاه السائد في النقد الأدبي المعاصر أن العمل الأدبي لايحكم عليه من خارجه أي من حيث التقويم الناقد لأفكاره ومعانيه ومغزاه بل من داخله أي مدى تماسك وترابط ووحدة العناصر المكونة له، فلاشك أن الاتجاه الإسلامي في النقد لايهمل البعد المعنوي أو الفكري أو الأخلاقي من العمل الأدبي، لأن الأدب الإسلامي لابد أن يكون هادفاً ورسالياً ونافعاً.. وإذا كان الفكر الغربي لايؤمن بثوابت فكرية وقيمية ودينية، لأسباب تأريخية وثقافية خاصة بهذا الفكر، ومن ثم لم يعد مقتنعاً بإمكانية التواصل والتحاور أو التفاهم أو التلاقي إلا على القليل من الأسس الفكرية والرؤى الكونية والمعطيات المذهبية الإسلامية، والمتظللين بمظلتها الوسيعة الصامدة عبر مختلف قنوات التواصل الفكري والأدبي، فهل يمكن أن نستشف من رواية «الإعصار والمئذنة» معنىً عميقاً ذا شقين: الشق الأول: انكشاف لا جدوى معاكسة التقاطع مع القناعات الإيمانية المستقرة في ضمير هذه الأمة وضرورة العودة من رحلة الاغتراب والجحود والذوبان فيما رضي به الآخر لنفسه من رؤى أو فرض عليه.. وثانيها حتمية تولي المتقين المتمرسين المستكملين لشرائط التمكين زمام المواجهة بين حراس المآذن والقافزين على متن الأعاصير.

■■ الأسلوب:

الرواية مكتوبة بأسلوب يتسم بالنقاء والوضوح والأناقة والتجرد من التعبيرات الرمزية أو الفائضة أو المفتعلة والخلو من الكلمات العامية، وذلك في حسنات الأسلوب إذ يقول «كاميليو جوزي سيلا» «إن أول قاعدة يجب على المؤلف أن يلتزم بها إنما هي أن يكون مفهوماً» ومعجم الكاتب التعبيري حافل بالصور المعبرة المشبعة بنكهة روحية وشفافية إيمانية كقوله: «أجاب وهو يحس بأن أجنحة النشوة أخذ يتطاير منها الريش وبأنه قد يهوي عما قريب».. وقوله «كان عاصم يتجاوز بالعشق الحلال ثقل الزمن وبؤسه» جملة متوسطة النفس وتمنح القارئ شغفاً بالمتابعة وتنقذه من تزاحم المعاني وتساوقها في الجمل الطويلة التي تشعر القارئ بالإنهاك والضجر في عصر السرعة هذا الذي يطمح فيه إلى الوصول إلى الخاتمة والحل النهائي بجهد طبيعي لايورث إرهاقاً أو نفاد صبر، وليس الروائي المسلم مكلفاً تكليفاً محتماً بانتهاج أسلوب الرواية الجديدة التي تقسر القارئ على الاشتراك الإلزامي في مغامرة الرواية والاستكشاف؛

اتسم أسلوب الرواية بالنقاء والوضوح والأناقة

لذا فإن الكاتب قد اختار الطريق الأسهل وأعفى قارئه من التخمين والتحليل والتركيب.

■■ ملاحظات على اللغة:

هناك ملاحظات بسيطة على لغة الرواية فقد وردت هنات بسيطة من المستحسن تلافيها في الطبعة القادمة

١ـ تعديل عبارة «كلما جلس إليها يستمع إلى همسها الخجول ما كان يحكي لها شيئاً» إلى عبارة أكثر نصاعة ووضوحاً بيانياً مثل «وحين كانت تهامسه بخجل كان يستغرق في ارتشاف كلماتها بصمت واستغراق».

٢ـ استبدال عبارة «صحيح أن الشتاء كان قد ولى..» بـ «كان الشتاء قد ولى» لأن كلمة صحيح توحي بأن هناك استدراكاً بـ «لكن» ولا استدراك.

٥ـ ص١٣ كانت الدار، وليس: كان الدار.

٤ـ ص١٦ تبديل عبارة «خطوطاً من الحزن» بـ «سمة أو ملامح من الحزن» لأن الخطوط لاترتسم على الوجه غالباً إلا في الشيخوخة وكذلك في ص١١.

٥ـ ص١٧ «سأظل» تصبح «سأبيت» التي تفيد الاستعمال لليل.

٦ـ ص١٠١ يعتبرونها تحدياً وليس: تحد.

٧ـ ص١٠٤ ومن شدة شعوره بالفرح، بدل فمن فرح، لأن الفاء تفيد العطف المباشر وليس الموضع كذلك.

٨ـ ص١١١ وبأعقاب بدلاً من فبأعقاب.

٩ـ ص١١٢ حذف عبارة «لايبقى فكركم طرفي» عبارة غير مقبولة وهي من إرث مضامين الرسائل التقليدية القديمة.

١٠ـ ص١٢٠ ومن فرحه، بدلاً من: فمن فرح. بل من الأولى استعمال عبارة غيرها أيضاً تحاشياً للتكرار الممل لدموع الفرح.

■ نُشرت دراسة نقدية عن رواية «الإعصار والمئذنة» في العدد الحادي عشر من مجلة الأدب الإسلامي بقلم الأستاذ حيدر قفة «التحرير».

■■■